

تأملات في مسألة الحجاب

2- إقبال بركة على درب أمينة السعيد ونوال السعداوي

بقلم : عبد الآخر حماد

حين ألف قاسم أمين كتابه (تحرير المرأة) داعياً إلى الاختلاط والسفور كان من أهم ما استند إليه في ذلك زعمه أن الشريعة الإسلامية ليس فيها نص يوجب الحجاب على الطريقة المعهودة، وإنما هو في زعمه عادة عرضت لهم من مخالطة بعض الأمم فاستحسنوها وأخذوا بها وألبسوها لباس الدين .

ورغم أن الكثيرين من أهل العلم والفضل قد ردوا على هذا الادعاء وبينوا بطلانه، إضافة إلى أن قاسم أمين قد ذكر في كتابه المشار إليه أن مقصوده بالحجاب ما كان سائداً في عصره من الستر الكامل للمرأة متدرجاً بقول من قال من الفقهاء إن المرأة يجوز لها أن تكشف وجهها وكفيها، إلا أن من ساروا على دربه قد صاروا يرددون مقولته تلك قاصدين بها عدم فرضية أي قدر من احتجاب المرأة، ولو كان ذلك مع كشف الوجه والكفين، أو حتى مجرد مندبل يغطي الشعر.

فالصحافية المعروفة أمينة السعيد على سبيل المثال ظلت لسنوات طوال تهاجم الحجاب والمحجبات وتُسخر مجلة حواء التي كانت ترأس تحريرها للدعوة للتبرج والسفور، وكان من مزاعمها أن قالت: ((إن ما نراه اليوم شائعاً بين الفتيات والسيدات مما يسمونه الزي الإسلامي فالإسلام منه براء، لأنه تقليد حربي لزي الراهبات المسيحيات)). . ومن أقوالها المشهورة في ذلك: ((هل من الإسلام أن ترتدي البنات في الجامعة ملابس تغطيهن تماماً وتجعلهن كالعفاريت؟ وهل لا بد من تكفين البنات بالملابس وهن على قيد الحياة؟)).

والطبيبة نوال السعداوي هي أيضاً تتكلم باسم الإسلام زاعمة أن حجاب المرأة لا علاقة له بالإسلام، وأنه مأخوذ عن اليهود، وفي حوار نشر بصحيفة الكفاح العربي اللبنانية بتاريخ 23-6-2006 قالت: ((إن الحجاب نوع من الكذب والنفاق، وإنه لا يوجد إشارات في القرآن حول الحجاب وحتى إذا كان يوجد فإن سيدنا محمد قال أنتم أعلم بشؤون دنياكم)).

العجيب أن هؤلاء المتمسحات في أحكام الشريعة الزاعمات أن الحجاب ليس فريضة إسلامية لا ينم شيء من سلوكهن عن احترام الدين والتمسك به ،فأمانة السعيد هي التي قالت في حقبة الستينات من القرن الماضي : ((كيف نخضع لفقهاء أربعة ولدوا في عصور الظلام ولدينا الميثاق؟))، وهي التي اعترضت في حقبة السبعينيات على العقيد القذافي حين طالب بإغلاق ملاهي شارع الهرم زاعمة أن ما يحدث في شارع الهرم هو نوع من كرم الضيافة المصرية .

ونوال السعداوي هي التي وصفت الحج بأنه من بقايا الوثنية ،وقالت في حوار أجرته معها إحدى الصحف المستقلة منذ سنوات : ((يرحم الله رابعة العدوية لم تكن تحج ولا تصلي ولا تصوم ،وكانت ضد الشعائر مع ابن عربي، والصوفية كلهم ضد العبادات ... الحج هو بقايا الوثنية ... لازم الناس تعرف إن الحج وتقبييل الحجر وثنية)) .

وعلى خطى أمينة السعيد ونوال السعداوي تسير اليوم إقبال بركة التي جعلت المهجوم على الحجاب شغلها الشاغل زاعمة هي أيضاً أن الحجاب ليس من الإسلام ،وأنه بحسب ما ذكرت في رسالة أرسلتها لموقع أبناء مصر إبان أزمة الحجاب في فرنسا : ((ليس فريضة ولا يجوز أن نضيفه إلى الأركان الخمسة و نقارنه بالصلاة والزكاة)) .وتقول: ((إن أسلافنا عندما قرروا أن المرأة عورة لم يستندوا إلى نص إلهي و إنما إلى ما كان متبعاً في وقتهم ... كان الحجاب ضرورة وقت الجوارى و الحریم و المجتمع الرعوي و الفوضى البشرية ،وأما الآن فارتدأه والترويج له والمخاربة في سبيله عارٌ علينا جميعاً كمسلمين ،وقد حاولت أن أتوصل لرأى في هذا الموضوع فعكفت على دراسته طويلاً ثم نشرت محاولتي في كتاب الحجاب: رؤية عصرية ...)) .

وفي حوار أخير لها مع الأستاذ محمد صلاح في برنامج (كلام والسلام) أذيع في نوفمبر 2006م كررت إقبال بركة آراءها في أنها ضد الحجاب، وأن الحجاب ليس فرضاً على المرأة المسلمة ،ولما ذكر لها الأستاذ محمد صلاح أنه ينبغي ترك الحكم على الحجاب لعلماء الدين احتجت بأنه ليس في الإسلام رجال دين ،كما ذكرت أن من حقها الحديث في هذا الموضوع لأنها حاصلة على ليسانس آداب في اللغة العربية .

لم أقرأ كتاب إقبال بركة الذي أشارت إليه -و الذي قرأت مؤخراً أنه صودر بناء على توصية من مجمع البحوث الإسلامية ومفتي الجمهورية - غير أنني أقول : إن فرضية الحجاب ثبتت بنصوص صريحة قاطعة من كتاب الله سنة رسوله صلى الله عليه وسلم ، ولا يمكن لمسلم يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله أن يدع ما نص عليه كتاب الله وسنة رسوله لدعوى إنسان كائناً من كان ، فإذا قال الله تعالى : (يا أيها النبي قل لأزواجك وبناتك ونساء المؤمنين يدنين عليهن من جلابيهن ذلك أدنى أن يعرفن فلا يؤذين وكان الله غفوراً رحيماً) . [الأحزاب : 59] ، فإن هذا دليل قاطع على فرضية الحجاب على كل امرأة مسلمة ، وقد قالت أم سلمة رضي الله عنها تقول : (لما نزلت : (يدنين عليهن من جلابيهن) خرج نساء الأنصار كأن على رؤوسهن الغربان من الأكسية) . [أخرجه أبو داود (4101) وصححه الألباني في صحيح أبي داود] .

وإذا قال عز من قائل : (وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهن أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو بني إخوانهن أو بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون) . [النور : 31] ، فكيف لم يدع أن يدعي عدم فرضية الحجاب ؟ وهل لضرب الخمر على الجيوب معنى إلا أن تضرب المرأة بخمارها (وهو غطاء رأسها) على جيوبها (وهو موضع الفتحة من قميصها) لتستر صدرها ، وقد قالت عائشة رضي الله عنها : (يرحم الله نساء المهاجرات الأول لما أنزل الله : (وليضربن بخمرهن على جيوبهن) شققن مروطهن فاختمرن بها) . [أخرجه البخاري (4758) وأبو داود (4102)]

فهل تكون إقبال بركة أفهم لنصوص القرآن الكريم من نساء المهاجرين والأنصار اللاتي نزل القرآن بلغتهن ، ففهمن منه فرضية الحجاب ، أم هل تكون أفهم لآيات القرآن من الرسول صلى الله عليه وسلم الذي رأى نساء الصحابة يفعلن ذلك فلم ينكر عليهن !؟

أم أنها تظن أن كونها متخرجة من فسم اللغة العربية بكلية الآداب يتيح لها أن تفهم من القرآن الكريم ما لم يفهمه أفصح الفصحاء وأبلغ البلغاء صلى الله عليه وسلم؟! إن ما ذكرته الكاتبة المذكورة من أنه ليس في الإسلام كهنوت ولا رجال دين هو في نفسه قول حق وكلام صحيح، ولكنه من قبيل الحق الذي يراد به الباطل، فليس معنى أن الإسلام ليس فيه رجال دين أن يُترك الحديث في الدين لمن هب ودب بغير دليل ولا برهان، وإذا كان الإسلام لا يعرف رجال الدين بالمفهوم الكنسي فإنه وبكل تأكيد يعرف علماء الدين الذين يستنبطون الأحكام من مصادرها الشرعية والذين يرجع إليهم عامة الناس في معرفة ما أشكل عليهم من أمور دينهم كما قال تعالى: (فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون).

وإذا كان التخصص محترماً في كل علم وفن فلماذا يكون الحديث في الإسلام كلاً مباحاً لكل أحد ، بدعوى أن الإسلام ليس فيه رجال دين ؟

أما أطرف ما جادت به قريحة الكاتبة المذكورة فهو أنها ذكرت في حوارها المشار إليه أن من حق الرجال في السعودية والخليج أن يطلبوا من نساءهم لبس الحجاب ؛ لأن الرجال هناك يغطون رؤوسهم وعلى ذلك فلا مانع من تحجب النساء أما في مصر فلا يصح ذلك لكون الرجال لا يغطون رؤوسهم .

ولست أجد رداً على ذلك إلا مقولة الحافظ ابن حجر: من تكلم في غير فنه أتى بالعجائب ، فهل تعلم الكاتبة المذكورة أن الله تعالى حرّم على المسلم المُحرّم بالحج أن يغطي رأسه ، بينما أمر المرأة المحرمة أن تغطي رأسها وجميع بدنّها (إلا أنّها لا تنتقب ولا تلبس القفازين) فهل تتهم الكاتبة رب العالمين بالتمييز بين الجنسين ، وهي التي يجلو لها أن تصف الحجاب بأنه رمز للقهر وتمييز الرجال على النساء ؟ .
(كبرت كلمة تخرج من أفواههم إن يقولون إلا كذباً).